مقدمات لدرس تاريخ الادب : ١

منشأ الآداب العربية

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كليّة القديس يوسف

١

توطئة

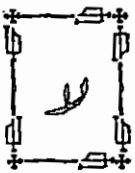

يسع المطّلع على التآليف العصريـة في تاريخ الادب ، الواقف على اتجاه هذه الدروس في ايامنا ، الّا ان يغتبط بتلك الحركة المباركة التي اخذت تصرف اكثر مؤلّفينا عن الاخـذ باقوال الرواة دون تمحيص ، وتلخيص ابحاث القدماء دون انتقاد . فهم ، اذا عرضوا اليوم للتراجم ، تـاءلوا عن مصادرها الصحيحة ، واهتموا بما يفيده العلم الحديث — او بمـا سمعوا عن العلم الحديث انه يفيده — من اساليب الشكّ ، والتوقّف ، والفرض ، والترجيح . . . فراحوا يعدّدون « الملاحظات التوقيتية » ، و« التحقيقات التاريخية » ، و « البحوث النقدية » لسبب ولغير سبب ؛ كأنهم ارادوا ، قبل كل شيء ، ان يظهروا للمطالع انهم باصول « التحقيق العلمي » آخذون ، وعلى اساليب « النقد الحديث » واقفون . . . وهو سعيٌ محمود في اصله ، وان لم تأتِ منه الغـاية المتوخاة حتى اليوم فلتـرَع في استنتاجات اولئك « المحقّقين » اذ يـتندون في التاريخ الى نصّ يمكـون معنـاه عن غير قصد ، او الى قصيدة يفهمونها على غير وجهها ، او الى حجة ادبيـة ضعيفة في موضوع يجب فيه الاستناد الى اثر

تاريخي ثابت ، او الى غير ذلك من الاساليب التصف علمية ، فيخالون المغالطة تحقيقاً تاريخياً والحلّ البسيط نقداً ادبياً . وما ذاك الّا عن نقص بالاستعداد ، وضيق في التهذيب العلمي ، يدفعهم من جهة الى طرح آراء من تقدّمهم دون استثناء فيقفون بعكس ما نعوه على القدماء المقلّدين ؛ ويحصرهم ، من جهة اخرى ، ضمن المصادر العربية وحدها ، وهي اقل من ان يكتفي بها المؤرخ العصري .

ولكن مهما بلغ من نقص هذه الاساليب او من ضررها ، فانها تبشر بنهضة تتململ في ادمغة مؤلفينا فتخطئ بالضعفاء منهم وجه الصواب اذ يموّهون بالعلم وهم لم يتعوّدوه ، وتسير بالمدقّقين الى المحجّة الصحيحة فتفيد التاريخ والآداب معاً ، وتستحق شكر الادباء والمؤرخين جميعاً .

واذاً فاننا نرى مؤرخي الادب في عصرنا على فئات ثلاث :

فئة تسير على الطريق السهلة التي اختطّها السلف الصالح وعبّدها الخلف المطيع . فلا توقف ، ولا تردُّد ، ولا حجر ، ولا عقبة ، حتى ليمكن السائر ان يغمض عينيه ويمشي . وهي كثيراً ما تفعل ذلك ، فتتابع سيرها مغمضة العينين ، خليّة الذهن ، مطمئنة . حتى اذا عثرت بعقبة لم تخطر على بالها ، او اصطدمت بصعوبة لم تستعدّ لها ، افاقت مستغربة ، وفزعت الى معدّاتها النقدية العلمية فلم تجد الّا « رُوي » و « يزعمون » . . .

وفئة سمت بالاساليب العلميّة ، فاستواها التحقيق والتمحيص ، واحبّت التنقّل بين العقبات ، ولم يكن لها من استعدادها ما يخرجها من تلك الطريق التقليدية ، طريق الفئة الاولى . فجعلت تأتي بالحجارة وتلقيها فيها عمداً وبغير ترتيب ، ثم تجتهد في زحزحتها وتقليبها ، مستعملةً المفردات الضخمة ، والتعابير النقدية ، موهمة انها تحلّ الصعوبات الادبية وتدرس المشكلات التاريخية . والحقيقة انها لم تحلّ شيئاً ولم تدرس شيئاً ، بل اخترعت صعوبات لم تكن ، وتوهّمت مشكلات لم توجد ؛ رغبةً منها في الاصطباغ بصبغة العلم والتمويه بطلاء التحقيق التاريخي ، والتظاهر بالحياة ، وان مدة قصيرة ، في جوّ من الانتقاد مصنوع . فكانت النتيجة انها انصرفت عن بساطة الاولين ، ولم

تلحق بتدقيق العلماء المحققين.

وفئة ثالثة ، وهي الاقليـة ، قرنت الاستعداد العلمي الطويل بدقة النظر وصواب الحكم ، فاتضحت لهـا مناهج البحث ، فتركت الطريق السهلة على سهولتها ، بل رفعت منها ما رماه فيها بعض اشباه العلماء ، واخذت في تسهيل ما صعب من الطرق حولهـا . فهي لا تشكّ بامر ثابت لمجرّد الشكّ ، ولا تخترع الصعوبة التاريخية لمجرّد اللذّة في حلها ، ولا تبني الخرافة الوهمية لمجرّد الفخر في هدمها. وايّة لذّة وايّ فخر في فتح باب مفتوح ! هذه هي الفئة العالمة التي يجب ان يقلّدها المدققون ، ويقتفي اثرها المحقّقون.

* * *

على ان جميع هؤلاء المشتغلين بالتاريخ الادبي ، من اي فئة كانوا ، والى اي مذهب انتموا ، قلّما تجاوزوا اليوم ، في مساعيهم المشكورة على كل حال ، موضوعَ التاريخ ، سواء كان ذلـك في اشخاص الادباء او في آثارهم او في الدول المختلفة . فهم يحصرون غالباً اساليبهم التحقيقية في عصر الاديب الفلاني او الدولة الفلانية او في تاريخية الاثر الفلاني . وقد يسهو بال اكثرهم عن تأثير عامل آخر قد لا يقلّ اهمّيّة عن العامل التاريخي في قدر قيمة الادب ، بل كثيرًا ما زاد عليه ولاسيما في العصور الاولى ، الا وهو العامل الجغرافي وما يجرّ اليه.

من الضروري ان نعرف في ايّ عصر عاش الشنفرى مثلًا ، ومن المفيـد ان نعرف هل مات النابغة قبل النعمان ام لا . ولكن من الضروري ايضاً ان نعرف اين عاش الشنفرى ، ومن المفيد كذلك ان نعرف الى اين رحل النابغة مجفوًّا . . . فليست بيئة الشنفرى اقلّ تأثيرًا في شعره من العصر الذي عاش فيه ، وليست البـلاد التي تنقّل فيها النابغـة اضعف مظهرًا في قصائده من سني حياته.

هذان مثلان بسيطان للدلالة على اثر العوامل الجغرافية في الادب عامّة وفي الادب العربي خاصّة . ويمكن المطالع ان يمدّ الامثال على ذلك فيتحقق ما اصبح من الثابت المقرّر عند ذوي البحث من أن البيئة تكيّف الانسان بـل الشعوب ، وتسم بسمتها كل ما تولّده هذه الشعوب من آثار مختلفة في الادب

والفنّ وما اليها . حتى قيل بكل صواب « ان الانسان ابن بيئته »

ونحن اذا تصفحنا ادبنا المتمدّد المجالي على كرّ العصور ، حتى اقدم مظاهره بل حتى زمن نشأته ، نرى انه تأثّر فوق كل ادب بالبيئة التي نشأ فيها . ثم اننا نرى ذاك الاثر الواضح يتجاوز الادب الى اللغة نفسها فيبدو في تعابيرنا حقيقية كانت ام مجازية ، بسيطة ساذجة ام شعرية فنية . فاننا لا نفهم حقّ الفهم قول العرب : « سقاك الله ! » « رعاك الله ! » ، ولا ندرك كل الادراك دعاءهم بالخير : « اقرّ الله عينك ! » وبالشرّ : « اسخن الله عينك ! » ولا نشعر بالقرابة بين « الندى والكرَم والغيث والجود » ولا بالمعنى الدقيق في « رطّب الله ثراه ! وسقى الغيث قبره ، وبكت عليه الغوادي والرائحات ! » الّا اذا انتبهنا لحياة العرب في تلك الصحراء القاحلة الحارّة ، القليلة المطر والرطوبة ... هذا ولو عاش العرب في بلاد غزيرة المياه ، شديدة البرد ، لعكسوا تعابيرهم دون شكّ وتمنّوا الجفاف لقبور موتاهم والدفء والحرارة لاحيائهم ...

هذا قليل من كثير من اثر البيئة الجغرافية في آدابنا وتعابيرنا . وهو ما سنتوسّع في درسه في هذه المقدّمات التي نراها ضرورية لفهم الادب العربي . فنمهّد ثلمة صغيرة في تاريخ الادب ، ونقوم بخدمة ضئيلة في جنب ما قام به مؤرّخو الادب . والله الموفّق للصواب !

(للبحث صلة)